الفيصل

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث الإسلامي في العالم

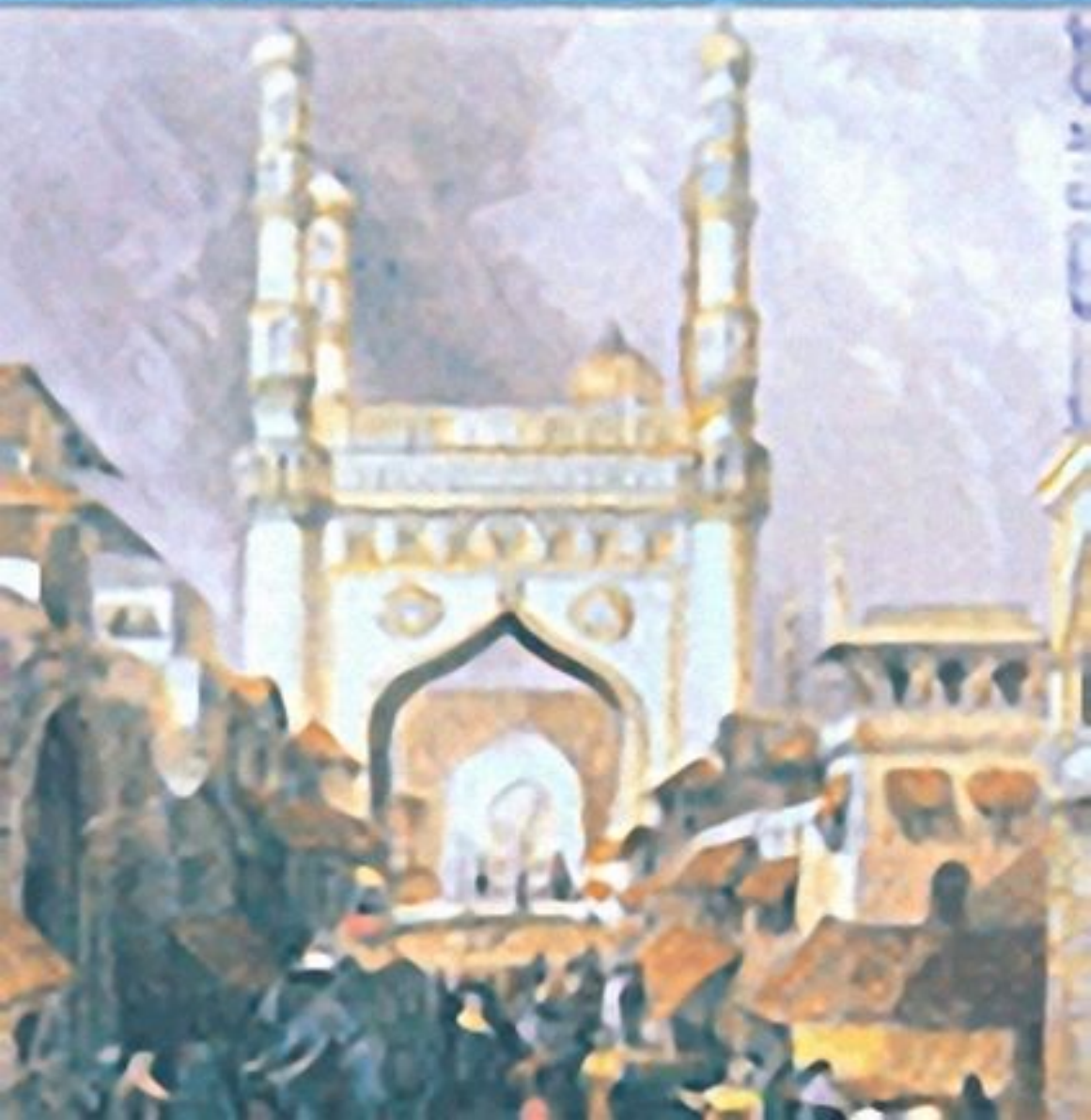

الفجر

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث، تصدر في هولندا

العدد: ٤٥ - ٤٦ / ٢٠٠٨ - ١٤٢٩

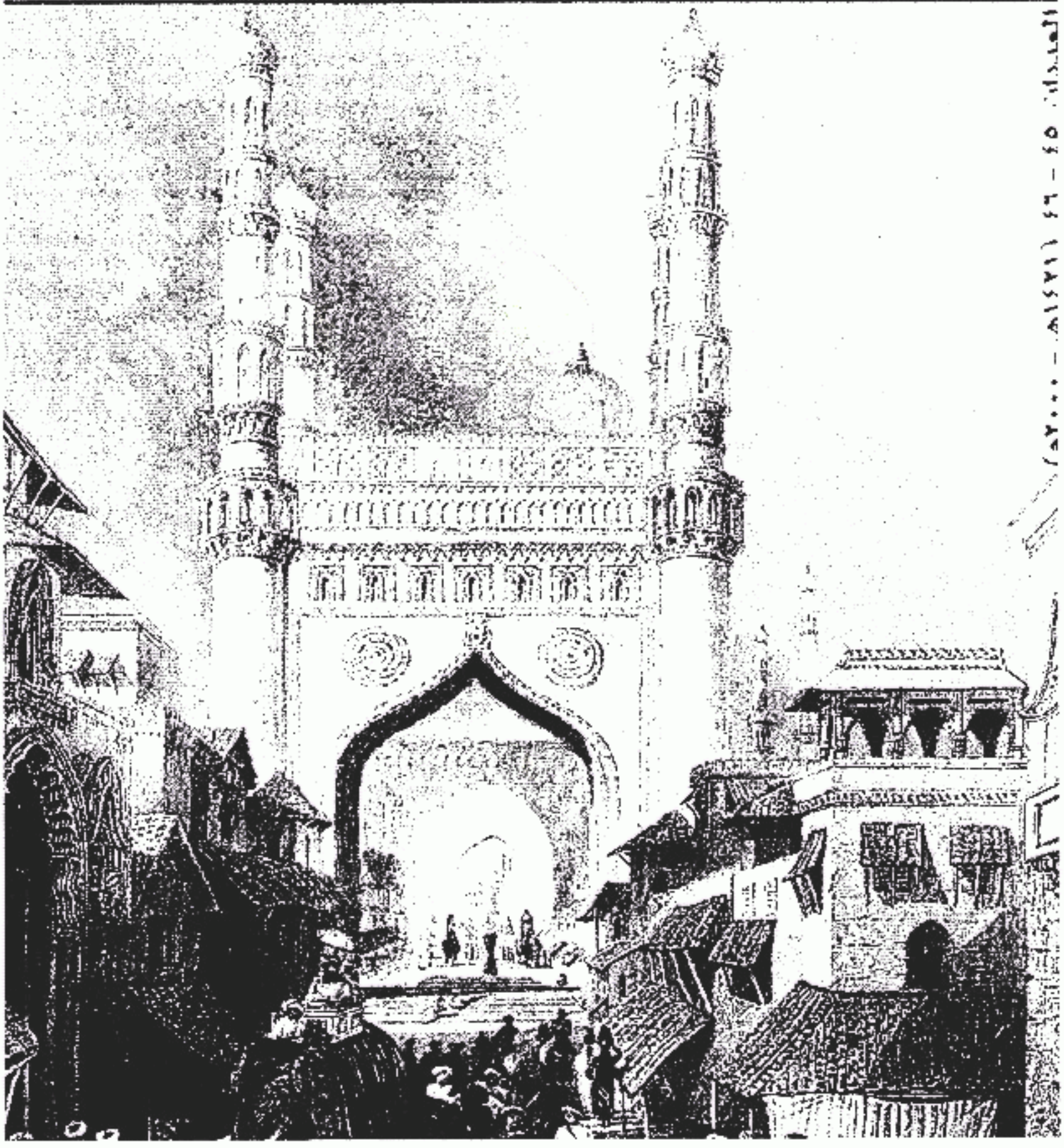

السيد هاشم معروف الحسني

عالم ورع .. ومجتهد مجدد .. وباحث غزير الإنتاج

• عبد الحليم الرهيمي

خلال الأربعة عشر عاما التي مرت على رحيله ، كتب وتحدث كثيرون عن حياة العلامة الكبير المرحوم السيد هاشم معروف الحسني وشخصيته ، وعن فكره واجتهاداته ، التي احتوت عليها كتبه ومؤلفاته التي تجاوزت الأربعة والعشرين كتابا .

مع ذلك ، ورغم الأهمية التي انطوت عليها تلك الكتابات ، فإن أحدا لا يستطيع الزعم أنها قد أوفت شخصية السيد حقها ، ولمؤلفاته مكانتها التي تستحق ، حيث لم يكتب بعد ، كما ينبغي ، عن حياة هذا العالم الورع المترعة بالعمل والعطاء والتأليف ، كما لم يكتب بعد ، وكما يجب ، عن كنوز مؤلفاته وإظهار معالم الاتجاهات الإصلاحية والتجديدية فيها ودراستها بعمق أكبر ، للارتقاء بها إلى ذلك المدى الرحب الذي كان يشغله السيد في حياته ، وإلى الفضاءات الواسعة التي اقتحمها دون تهيب أو وجل ، فملأها بجرأة أفكاره النقدية واجتهاداته وآراءه الإصلاحية التي أغنت الفكر الإسلامي المعاصر وأثرت المكتبة العربية الإسلامية .

لا أزعم أني سأقوم ، عبر هذه السطور بذلك ، فتلك المهمة غير السهلة ، لن يوفيها حقها إلا من امتلك ، من المختصين ، ناصية العلوم الدينية والفلسفة التي ولج السيد هاشم أبوابها وسار في مسالكها ، وما أريد قوله هنا ، هو جملة من الأفكار والخواطر التي حملتها الذاكرة عن السيد منذ أن تعرفت عليه ، قبل أن أعرفه ، ومنذ أن عرفته عن قرب حتى رحيله . لقد كان هذا العالم الجليل بمثابة الوالد والأخ الكبير الموجه والناصح الذي له حق علي ، مثلما علي واجب اتجاهه ، لما أسدى لي من نصائح ومد لي يد العون والمساعدة العلمية

خلال إعداد بحثي "تاريخ الحركة الإسلامية في العراق" . لذلك فإن من الوفاء، أن نجدد إحياء ذكراه العطرة كي تبقى حية وندية في ذاكرة الجميع ووجدانهم، جميع الذين عرفوه وأحبوه ، عن قرب أو عن بعد ، والذين وقفوا ويقفون إجلالاً لشخصيته الإسلامية المهيبة الورعة التي كانت ممتلئة إيماناً وعزيمةً وإخلاصاً وتسامحاً ومحبةً للآخرين .. بل وجميع الذين عرفوا من كتبه ومؤلفاته، أو سيعرفون ، أي شخصية ، بل أي إنسان وعالم جليل ومجدد ، افتقدناه !

لقد تعرفت على السيد مرتين : في الأولى ، من خلال قراءتي لعدد من كتبه ، لا سيما "سيرة المصطفى" و "سيرة الأئمة" و "الانتفاضات الشيعية" و "نظرية العقد في الفقه الجعفري" و "المبادئ العامة للفقه الجعفري" .. وغيرها .

وعندما حطت بي رحلة الاغتراب في محطتها الثانية ببيروت عام ١٩٧٢ ، حيث كنت "قادما" إليها من دمشق ، سمعت وقرأت أكثر عن السيد هاشم ، وعن أفكاره المتنورة وآرائه الجريئة ، وعن أخلاقه الإسلامية الرفيعة الصادقة ، لا المدعاة .. فأصبحت متشوقا لرؤيته ، حيث يقيم في صور ، لكن لا أدري ، كيف أن الفرصة لم تسنح لتحقيق هذه الرغبة .

أما تعرفي على سماحته رحمه الله ، في المرة الثانية ، فكان الأهم . كان تعرف عن قرب ، وبسرعة اختصرت فيها المسافات ، فبعد أن أصبحت عديلا لأحد أنجاله ، وهو الدكتور كاظم الأخصائي الشهير في جراحة طب العيون ، ذهبت إلى السيد في أول زيارة تعرف ، بمعية والد زوجتي الوجيه الحاج محمد ناصر ، وهو شخصية متدينة واجتماعية بارزة في بلدة حاريص جنوبي لبنان ، وقبل ذلك بين أبناء الجالية اللبنانية في ليبريا (أفريقيا) حيث كان يعمل . وقد كان كل منهما يكن للآخر عظيم التقدير والاحترام والمحبة للعلاقة الأخوية الودية المديدة المنعقدة بينهما لسنوات طويلة ، والتي كانت المصاهرة بين العائلتين أحد مظاهرها .

لقد اختصرت تلك العلاقة الحميمة طريق التعرف عن قرب على السيد الذي سرعان ما اعتبرني واحدا من أفراد الأسرة ، وهو الأمر الذي شجعني كثيرا على أن أتوجه ، خلال العامين اللذين تعرفت عليه بهما قبل وفاته ،

بالكثير من الأسئلة والاستيضاحات التي كنت أخشى أن تكون محرجة له وذلك فضلاً عن استماعي إلى نصائحه وآرائه في بحثي وفي العديد من القضايا التي اهتم بها وتدخل في صلب اختصاصه واهتماماته .

ومن بين المسائل التي كنت أتوجه إليه بالأسئلة حولها واستوضحه فيها ، ثلاث مسائل مهمة كانت تشدني لمعرفة رأيه بها أنقل ، باختصار ، إجابته عليها وهي :

المسألة الأولى : هي رأيه بالثورة الإسلامية في إيران ، التي كانت حديثة العهد ولم يمر عليها بعد سوى سنتين . وإضافة لذلك سألته لماذا لم يسافر حتى قبيل وفاته إلى إيران ، في حين لم يسق أحد من رجال الدين أو ممن تعاطف مع الثورة أو أيدها ، إلا وسافر إلى هناك لهذا السبب أو ذاك ؟ أجاب السيد بصراحة وتواضع : لقد كنت من أوائل الذين أرسل إليهم الإمام الخميني رحمه الله دعوة للتوجه إلى طهران وتبوء موقع ديني رفيع هناك . وقد اعتذرت عن تلبية الدعوة شاكراً ، ومبرراً بكثرة أشغالي في لبنان . وحين سألت .. ولماذا ؟ أجاب : إنني كنت أتحسس أجواء "فتنة" ونذر انحراف لم أكن راغباً أن يلحقني أذى منها فيما لو كنت بطهران .

والمسألة الثانية : كانت سؤاله عن رأيه بكيفية استلام وتوزيع الحقوق الشرعية أو الخمس حيث يدور حديث واسع في أوساط العامة ، عامة المسلمين الشيعة ، عن وجود حالات فوضى كثيرة حول هذا الموضوع الشائك .

وبصراحته المعهودة أجاب السيد : فيما يتعلق بي ، فأني لا أنام إذا لم أوزع الحقوق التي ترد إلى أصحابها ، أي صرفها وفق القواعد التي يحددها الشرع ، وأنا وأولادي ، لن نتصرف بأي قرش منها ، لأني وأولادي نعمل ونعيش مكتفين بوارد عملنا (لقد كان رحمه الله يعمل قاضياً شرعياً فضلاً عما يرده من بيع كتبه) ، إنني قلت وأقول ، أن هذه المسألة تستوجب الحل ، وهو أن تقام مؤسسات مالية أشبه بـ"بيت مال المسلمين" ترد إليها تلك الأموال ضمن ضوابط ومستندات ، وتوزع وتنفق وفق القواعد والأسس المعروفة

للجميع ، على أن يبقى المال المدور ، أو المؤسسات التي تقام تحت إشراف المؤسسة أو اللجنة المشكلة ، لمصلحة عموم المسلمين الشيعة وخدمتهم ، بل وحتى تعم بفائدتها على جميع المسلمين ، وليس لمصلحة أفراد ، مهما كان شأنهم !

أما المسألة الثالثة : فقد سألته عن صحة ما يقال وينقل عنه في أوساط الأحزاب السياسية اللبنانية وفي أوساط الفلسطينيين ، من أنك لا تعارض الأعمال المشتركة والتنسيق بين المسلمين أو الإسلاميين من جهة ، وبين الأحزاب العلمانية أو اليسارية وخاصة الشيوعيين من جهة ثانية ؟

وحول هذه المسألة التي أوضحها السيد مرات عدة وبأمثلة من الواقع الحي ، واقع الصراع والحرب الأهلية في لبنان قال : أنا كمسلم وكعالم دين أعتبر الشيوعية مذهب إلحادي وكما تقول هي عن نفسها كذلك . غير أن ذلك لا يمنع من تعاون الإسلاميين والشيوعيين على عدد من القضايا ، كالمطالبة بالحريات وبالحقوق النقابية والدعوة للمساواة والعدالة ، أو التنسيق في مواجهة إسرائيل وكذلك العمل على مواجهة الحكومات المستبدة وسياساتها . واجتهادي في ذلك ، كما يقول السيد ، أنه يمكن الاتفاق على أعمال مشتركة في الأرض وفي هذه الدنيا بين المسلمين والإسلاميين من جهة والعلمانيين واليساريين والشيوعيين من جهة ثانية ، وأن يبقى الخلاف بينهم في السماء فلله سبحانه الحكم ، في النهاية ، على عقائد ونوايا وأعمال خلقه ومحاسبتهم عليها .

* * *

عندما كنت ألتقي السيد ، بعدما اشتد به المرض العضال وصار يتردد كثيرا على بيروت للمعالجة قادما من صور ، وذلك منذ بداية عام ١٩٨٣ ، وخاصة خلال شهري آذار ونيسان ، كان شديد الغضب والإشمئزاز من المفاوضات غير المتكافئة التي كانت تجري بين الحكومة اللبنانية (حكومة شفيق الوزان آنذاك) وبين إسرائيل . وكان يقول ببصره الثاقب ، أن ما يجري ليس

مفاوضات سلام ، بل تأسيس لحروب أهلية مديدة في لبنان ، بل وربما لحروب إقليمية جديدة ، وقانا الله شر وقوعها .

إنها لمفارقة مدهشة وذات دلالة في آن واحد . أن يرحل السيد هاشم عنا ويودعنا في ١٨ أيار ١٩٨٣ أي في اليوم التالي لتوقيع اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣ بين الحكومتين اللبنانية والإسرائيلية والذي أطلق عليه "اتفاق الإذعان" ، فكان ذلك بمثابة احتجاج صارخ ومدو على ذلك الاتفاق ، كان تعبيرا عن جزع مرير من الحياة ، حيث أريد للبنان واللبنانيين أن يذعنوا للإرادة الإسرائيلية ولهيمنتها العسكرية والسياسية .

وبعد .. رحم الله السيد هاشم معروف الحسني ، لقد كان بحق عالما ورعا جليلا ، ومجتهدا مجددا وإصلاحيا .. وباحثا ومفكرا غزير الإنتاج .

* * *

السيد هاشم قُبيل وفاته / أيار/ ١٩٨٣